بسم الله الرحمن الرحيم

قبل أن تهدم بيتك

احسب فاتورة القرار

الحمد لله...

لا تنظر لباب الخروج وحده

من أخطر ما يواجه الإنسان في القرارات المصيرية أنه ينظر إلى الباب الذي يريد الخروج منه، ولا ينظر إلى الباب الذي سيدخل منه بعد ذلك.

وهذه المشكلة تظهر بوضوح في كثير من حالات الطلاق؛ إذ ينشغل الزوج أو الزوجة بالخلاص من ألم الحاضر، دون أن يتأمل تفاصيل المستقبل، وكأن الطلاق نهاية القصة، مع أنه في الحقيقة بداية قصة أخرى فيها دهاليز أشد تعقيدًا.

الزواج ميثاق لا تجربة عابرة

لقد وصف الله عقد الزواج بأنه ميثاق غليظ، فقال سبحانه: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ النساء: ٢١

ولم يأت هذا الوصف في القرآن إلا في مواضع عظيمة، مما يدل على أن العلاقة الزوجية ليست تجربة عابرة، ولا عقدًا مؤقتًا ينقضه الإنسان لأدنى سبب، وإنما هي عهد يقوم على الصبر، والتغاضي، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُروجهن بِكَلِمَة اللَّهِ"[1].

ومن ظن أن الحياة الزوجية تخلو من المشكلات فهو حالم؛ فما من بيت إلا وتعرض له المنغصات، وإنما بيت يعالجها بالحكمة والصبر، وآخر يهدمها التسرع والانفعال.

احسب الخسائر قبل المكاسب

ومن أكثر الأخطاء شيوعًا أن يُبنى قرار الطلاق على العجلة، أو حب الانتقام والتأديب.

فعن مجاهد قال: جلست عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: "إنه طلق امرأته ثلاثًا". فسكت حتى ظننت أنه رادّها إليه ثمّ قال: " ينطلق أحدكم فيركب الأحموقة

---

(١) رواه مسلم.

ثمّ يقول: يا ابن عباس، وإنَّ الله قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ الطلاق: ٢ وإنك لم تتق الله، فلم أجد لك مخرجًا؛ عصيت ربَّك فبانت منك امرأتُك"[1].

ولهذا فإن من الحكمة أن يسأل الإنسان نفسه قبل أن يقدم على الطلاق: ما الذي سأكسبه؟ ثم يسأل السؤال الأهم: ما الذي سأخسره؟

الطلاق بداية مرحلة لا نهاية قصة

فالطلاق ليس ورقةً تنتهي بتوقيع، بل حياة جديدة لها تكاليفها النفسية والاجتماعية والاقتصادية. يدخل الإنسان بعدها في نزاعات طويلة على النفقة والحضانة والحقوق، والأبناء هم أكثر من يدفع ثمن القرارات المتسرعة، ولهذا لا تفكر في إنهاء الأزمة فحسب، بل فكر في بناء الحياة بعدها.

---

(١) أخرجه أبو داود ومن طريقه البيهقي.

المشاعر ليست معيار القرار

ومن الأخطاء أيضًا أن يظن الإنسان أن مجرد شعوره بعدم الارتياح كافٍ لإنهاء الزواج.

فالقرآن يربي المؤمن على أن المشاعر وحدها ليست معيارًا للحكم، قال تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ النساء: ١٩

فليس كل ما نكرهه شرًّا، وليس كل ما نرتاح إليه خيرًا. والإنسان قد يضيق بطبع من طباع شريك حياته، ثم يكتشف مع الأيام أن ما ظنه عيبًا كان سببًا لاستقرار بيته.

ومن وسائل التحرر من سلطان المشاعر أن ينظر الإنسان إلى الصورة كاملة، لا إلى موضع الخلل وحده؛ ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر»[1]. فالحديث يربي على

---

(١) رواه الترمذي.

الموازنة، فلا يحمله كرهُ خُلُقٍ واحد على إهدار سائر المحاسن.

ولذلك لما همَّ رجل بطلاق امرأته، قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لِمَ تطلقها؟" قال: لا أحبها. فقال عمر: "أوكل البيوت بُنيت على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم؟"[1].

فَرِّق بين المشاعر والعوائق

كما ينبغي التفريق بين المشاعر والعوائق، فالمشاعر تتقلب، ولهذا سمي القلب قلبًا لكثرة تقلبه. أما العوائق فهي الأمور التي تجعل استمرار الحياة متعذرًا؛ كاستمرار الظلم، أو الإضرار، أو الخيانة، أو ضياع الحقوق، أو استحالة التفاهم بعد استنفاد وسائل الإصلاح.

---

(١) عيون الأخبار (١٨/٣). والتذمم: أن يحفظ الإنسان ما بينه وبين صاحبه من عهد وحق وعِشرة، فلا يضيّعها لمجرد زوال المحبة.

أما مجرد الفتور، أو اختلاف الطباع، أو نقص الإعجاب، فهذه أمور تمر بها أكثر البيوت، ويعالجها: الصبر، والحوار، والإحسان، لا هدم الأسرة.

ولم يكن هذا المنهج مجرد توجيه نظري، بل كان واقعًا يربي عليه الصحابة أبناءهم وبناتهم. فقد دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على ابنته حفصة بنت عمر رضي الله عنها يعظها، فقال: «أتغاضب إحداكُنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليوم حتى الليل؟» قالت: نعم. قال: «خابت وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتهلكين؟»[1]. وهذا يدل على أن المشكلات

---

(١) رواه البخاري، وسبب ذهاب عمر لابنته مشاجرة بينه وبين زوجه أيضًا، حيث قال: "كُنَّا مَعشَرَ قُرَيشٍ نَغلِبُ النِّساءَ، فلَمَّا قدِمنا على الأنصارِ إذا قَومٌ تَغلِبُهم نِساؤُهم، فطَفِقَ نِساؤُنا يَأخُذنَ مِن أدَبِ نِساءِ الأنصارِ، فصَخِبتُ على امرَأتي فراجَعَتني، فأنكَرتُ أن تُراجِعَني، قالت: ولمَ تُنكِرُ أن أُراجِعَكَ؟ فواللهِ إنَّ أزواجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيُراجِعنَه، وإنَّ إحداهنَّ لَتَهجُرُه اليومَ حتَّى اللَّيلِ، فأفزَعَني ذلك

الزوجية قد تقع حتى في خير البيوت، بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن وقوع الخلاف ليس مبررًا لإنهاء الحياة الزوجية، وإنما العبرة بكيفية التعامل معه.

حتى الفراق له أدب

ومع ذلك كله، إذا استحال الإصلاح، واستنفدت الوسائل، وأصبح بقاء الحياة الزوجية ضررًا محققًا، فإن الطلاق قد يكون هو الرحمة التي شرعها الله للطرفين، وليس في ذلك نقص ولا عيب، بل قد يكون بداية خير جديد، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ النساء: ١٣٠

لكن حتى في هذه الحال، يبقى الواجب أن يكون الفراق بإحسان، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾البقرة: ٢٢٩

وقُلتُ لَها: قد خابَ مَن فعَلَ ذلك منهنَّ، ثُمَّ جَمَعتُ عليَّ ثيابي، فنَزَلتُ فدَخَلتُ على حَفصةَ فقُلتُ لَها".

عش مع قرارك قبل أن تتخذه

وأخيرًا، فإن الحكيم ليس من يعرف كيف يخرج من الأزمة فقط، وإنما من يعرف كيف يعيش بعدها. وليس النجاح في أن تنتصر في لحظة غضب، وإنما أن تتخذ قرارًا تستطيع أن تعيش مع نتائجه عشرات السنين.

فالطلاق باب من الأبواب التي أباحها الشرع عند الحاجة، لكنه ليس بابًا يطرقه الإنسان كلما ضاقت نفسه، وإنما هو قرار يسبقه تفكير، ويحيط به استخارة، ويقوم على نظر بعيد.

ولهذا كان من الحكمة أن يحسب الإنسان فاتورة القرار قبل أن يهدم بيته؛ فالبيوت لا تُبنى في يوم، ولا ينبغي أن تُهدم في يوم.

وكتبه في ١٨/ ١ / ١٤٤٨ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد